فصل في سيرة الإسكندر اليوناني وهو الثاني

واختلفوا في نسبه، قال الغزالي: إن الإسكندر الروميَّ هو الصَّعب بن جابر، وكان أبوه نسَّاجاً، واسم أمه هيلانة، وكان يتيماً في حمير، سمعت أمُّه ببيت الصنائع في القُسطنطينية فحملتْه إليه، فشاهد صور الأشياء، فقالت له: اختر ما تريد، فوضع يده على تاج الملك، فنَهَتْه مراراً فلم ينته، فنظر إليها يونان متولِّي بيت الصنائع، فقال لها: أنت هيلانة؟ قالت: نعم. قال: وهذا ابنُك الصعبُ بن جابر[١]؟ قالت: نعم. فأخذ عهده وذمامه أنه وذريته في أمانه، وقال له: أبشر، فأنت الملك الذي يسحب ذيلَه على أقطار الدنيا شرقاً وغرباً.

فرجعت به أمه إلى بابل وكتمت أمره. فرأى في ثلاث ليالٍ ثلاثَ منامات: رأى في الأولى كأنه شرب مياه البحار كلِّها، وأكل طينها، ورأى في الثانية: كأنَّ الأرض صارت خُبزةً فأكلها، ورأى في الثالثة: كأنه رقي إلى السماء، فعد نجومها ورمى بها إلى الأرض، وركب الشمس، وسحب بناصيةِ القَمر. فاجتمع بالخضر فأخبره بما رأى، فبشّره بنَيْل الممالك، وقال له: استصحب نبياً وحكيماً.

قال المصنف رحمه الله: يا ليت شعري، من أين روى أبو حامد الغزالي هذه الروايات؟! وهل توجد في كتاب يُوثَق به من المنقولات؟ وهل قال قائل: إن الإسكندر الثاني اسمُه الصعبُ بن جابر؟ إنما هو الأول. وقوله: كان أبوه نسَّاجاً، وقد اتَّفق أرباب السِّير أنه ملك اليونان. وقوله: يتيماً في حِمْير، وأين اليونان من حمير؟! وقوله: حملته أمّه إلى القُسطنطنية، وهل بُنيت إلا بعد رفع عيسى عليه السلام بمدة طويلة؟! وقوله: رأى الخضر، وأين هو من الخضر؟! بينهما زمانٌ طويل، وقوله: استصحب معك نبياً، وهل كان اليونان يقرون بالنبوات؟!.

وقد نسبه الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في «المنتظم» فقال: هو الإسكندر ابن فيلفوس بن مرطويس[٢] بن هرمس بن هردس بن منظور[٣] بن رومي بن لمكي[٤] بن

---

(١) في هامش (ك) حاشية: الصعب وجابر من أسماء العرب لا اليونان.

(٢) في (ب) برطويس، وفي الطبري ١/ ٥٧٧، والمنتظم ١/ ٤٢٤، والكامل ١/ ٢٨٤: مطريوس.

(٣) في (ب) وتاريخ الطبري ١/ ٥٧٧: ميطون.

(٤) في تاريخ الطبري ١/ ٥٧٧: ليطي، وفي مروج الذهب ٢/ ٢٤٨: لبط، وفي المنتظم ١/ ٤٢٥: يلظي.

يونان بن ثوبة بن سرحون بن رومية بن بوبط بن زرمي بن الأصفر بن إيلنفز[١] بن العيص ابن إسحاق عليه السلام، وكان أبوه ملك اليونان.

وقال علماءُ السير: وُلد الإسكندر لثلاثَ عشرة سنةً مضت من ملك الأراكنة، وسلَّمه أبوه إلى أرسطاطاليس الحكيم، وكان مقيماً بمدينة اقمينية[٢]، فأقام عنده خمسَ سنين يتعلَّم منه الحكمة والأدب، فنال منه ما لم ينلْه أحدٌ من تلامذته. ومرض أبوه فخاف على الملك، فاستردّه وعهد إليه ومات، فاستولى الإسكندر على الملك، وكانت الملوك تهابه.

قصته مع دارا[٣]

كان أبوه ملكاً على بلاد اليونان، وتهابه الملوك إلا الفرس، فصالحه دارا بن دارا ملك فارس على أن يحمل إليه في كل سنة ألف بيضة من ذهب، في كل بيضةٍ مئة مثقال. فلما مات فيلفوس لم يَحمل إليه الإسكندرُ شيئاً، فكتب إليه دارا يهدِّده ويتوعَّدُه حيث أخّر الإتاوة، وبعث إليه بكرة وصولجان وخرقةٍ فيها سِمسم، وقال: أنت صبي، فالعب بهذه الكرة والصَّولجان، فإن أديت الإتاوة وإلا بعثت إليك بجنودٍ بعدد هذا السمسم، وأتيتُ بك في وثاقٍ.

فكتب إليه الإسكندر: أما بعد، فقد تَيمَّنت بالكرة والصولجان، فإن الدنيا مثل الكرة وسألعب بها، وأضيف ملكك إلى ملكي، وأما السمسم فقد تَيَمّنْتُ به لأنه بعيد عن الحَرافة[٤] والمرارة، وأما الدجاجة التي كانت تبيض ذاك البيض فقد ذبحتُها وأكلتُ لحمها.

فغضب دارا وسار إليه بجموعه، وسار إليه الإسكندر بجموعه، فالتقيا على نصيبين الجزيرة، وقيل: مما يلي الخزر من ناحية خراسان، والأول أصحُّ.

فلما همَّ دارا باللقاء، بعث إليه الإسكندر يقول له: أيها الملك لا تفعل، فإن دماء

---

(١) في المنتظم: زوفي بن الأصفر بن أليفز، وفي الطبري والكامل: رومي بن الأصفر بن أليفز.

(٢) في تاريخ الطبري ١/ ٥٧٣، والكامل ١/ ٣٨٢: مقدونية.

(٣) انظر تاريخ الطبري ١/ ٥٧٣، والأخبار الطوال ص٢٩ـ٣٢، ومروج الذهب ٢/ ٢٤٧، والبدء والتاريخ ٣/ ١٥٢، وتجارب الأمم ١/ ٣٥، والمنتظم ١/ ٤٢٣.

(٤) الحَرافة: طعمٌ يحرِق اللسان. «لسان العرب»: (حرف).

الملوك لا يجوز إراقتها، وهدم البيوت القديمة غير محمودٍ، والبغيُ مصرعه وخيم، والحرب غير مأمونة، وأصحابك قد مَلُّوك وكرهوك لسوء سيرتك، فارجع من حيث جئت، فإنك تَحمد قولي. فلم يلتفت دارا، وأقاما يتحاربان سنة، فمَلّا وكَلّا، والحرب بينهما سجال.

ذكر حيلةٍ دبَّرها الإسكندر

لما وقع الملَلُ من الفريقين برز منادي الإسكندر فقال: يا معاشر الفرس، علمتُم قديماً [ما] كان من مكاتباتكم إلينا، وما كتبنا لكم من الأمانات، فمَن كان منكم مقيماً على الوفاء فليتحوَّل إلينا، فله منا الوفاءُ بالعهد. فاتَّهمت الفرسُ بعضها بعضاً واضطربوا، فكان ذلك سبباًلخذلان دارا، ووَثب عليه رجلانِ في المعركة ممن أحسن إليهما من خلْفِه، فطعناه، فوقع.

وكان الإسكندرُ قد نادى: مَن ظَفِر بدارا فلا يؤذِه، وجاء الرجلان إلى الإسكندر فقالا: قد قُتِل دارا. فجاء الإسكندر إليه ونَزَل عن فرسه ووجده بَعدُ حياً، فقعد عند رأس دارا، وقال: والله ما هَمَمْتُ بقتلك، ولا سَرَّني ما أنت فيه، ولقد نَهيتُ عنه، ويعزّ عليَّ ما أصابك، ثم رَقَّ له وبكى عليه، وقال: سلني حاجةً، فقال: تقتلُ فلاناً وفلاناً اللذين قتلاني، فإني كنتُ محسناً إليهما، وأن تتزوج ابنتي روشنك، فقال: سمعاً وطاعة. وأحضر الرجلين ومثَّل بهما، وقال: هذا جزاء مَن يتجرَّأ على مَلِكه.

وتفرق مُلك فارس بقتل دارا، وكان مجتمعاً، واجتمع ملك اليونان والروم بالإسكندر، وكان متفرقاً.

ثم سار الإسكندر إلى بابل، وجلس على سرير الملك، ثم قال: أدالنا اللهُ من دارا، ورزقَنا خلافَ ما كان يتوعَّدُنا به.

ثم استولى على خزائنه وذخائره وسلاحه وجواهره، فلم يقدر على إحصائها، وتزوج ابنته روشنك، وبنى لها داراً، وقيل: مدينة عند بابل، ولم يكن لها في زمانها نظير. وقيل: إن روشنك كانت زوجةَ دارا، ولم يكن في زمانها أجمل منها، فقيل له: ألا تتزوجها، فقال: أكره أن يُقال: غلب الإسكندر دارا، وغلبت عليه روشنك.

ولما استولى على مُلك فارس عرض جيشه فكان ألف ألف وأربع مئة ألف، وكان عسكرُ دارا ألف ألف، وعسكر الإسكندر أربع مئة ألف.

وشرع فهَدم بيوت النِّيران، وقتل المَوابِذة، وأحرق كتبهم، وسار إلى الشرق فأوغل في الهند والصين، وفتح المدائن، ودانت له الملوك، وبنى مدينة أصبهان وهراة ومرو وسمرقند.

ولما وصل إلى الهند خرج إليه ملكها في ألف فيل عليها المقاتلة، وفي خراطيمها السيوف، فلم تثبت لها خيل الإسكندر، فصنع فيلة من نحاس مجوَّفة، وربط خيله بينها حتى ألِفَتْها، وملأها نفطاً وكبريتاً، ثم ألبسها السلاح، وجرّها على العَجَل إلى ناحية العدو، وبينها الرجال، فلما نَشِبت الحرب أمر بإشعال النار في أجوافها، فلما أُشعِلت تنحَّت عنها الرجال، وغشيتها فيلة الهند، فضربتها بخراطيمها، فاحترقت وولَّت هاربةً، فكانت الدائرة على ملك الهند.

ذكر قصته مع بود ملك الصين

وهو صاحب مدينة المانكير، ولما نزل الإسكندر على المانكير خرج إليه الملك، وأرسل إليه يقول: علام تُفني العالم؟ ابرُزْ إليَّ، فإن قتلتني كنت الملك، وإن قتلتك فأنا الملك. فتيمَّن الإسكندرُ لكونه بدأ بنفسه في ذكر القتل، فبرز إليه، فتجاولا ساعةً، فقتله الإسكندر وأخذ بلاده.

ذكر قصته مع كند [١]

كان بأقصى الهند مَلِكٌ حكيمٌ عادل، صاحب سياسة، واسمه كند، أتت عليه سنون كثيرة. فكتب إليه الإسكندرُ يستدعيه ويتوعَّدُه إن تأخر عنه. فكتب إليه يتلطَّفُه ويعتذرُ إليه بِكبر السنّ ويقول: قد بعثت إليك بهدايا لم يقدر عليها أحد من الملوك، منها: فيلسوف يخبر بالمقصود قبل أن يُسأل عنه، وطبيب لا يُخاف معه إلا الداء المحتوم، وجارية لم تطلع الشمس على مثلها، وقَدَح إذا ملأتَه شرب منه جميعُ عسكرك لا ينقصُ منه شيء.

(١) انظر مروج الذهب ٢/ ٢٦٠.

فلما وصلت الهدية إلى الإسكندر مع خواص الملك، أكرمهم وأحسن إليهم، وشاهد الجارية فحار في حُسنها، وأكرم الطبيب، وأنزل الفيلسوف قريباً منه وامتحنه، فأرسل إليه قدحاً مملوءاً سمناً لا يسع شيئاً آخر، فغرز الفيلسوف فيه إبراً وردَّه، فأمر الإسكندر بسَبْك تلك الإبرِ كُرةً مدوَّرة متساويةَ الأجزاء، وردَّها إلى الفيلسوف، فأمر الفيلسوفُ بسَبْكها مرآةً صَقيلةً وردَّها إلى الإسكندر، فأعادها إليه، فدعا الفيلسوفُ بطَشْت فتركها فيه، وأمر بصبِّ الماء عليها، ثم عَمِل منها مشربةً وجعلها في الماء فطَفَت، وأعادها إلى الإسكندر، فملأها تراباً وردَّها إلى الفيلسوف، فلما رآها بكى وتغيَّرت أوصافُه، وردَّها، وجعل يبكي ويقول: ويحَكِ يا نفسُ، ما الذي قَذَف بك في هذه الظُّلمة؟ ألست إذا كنتِ تسرحين في النُّور، وتَمْرَحين في العلوِّ، ثم أُنزلت إلى العالم المظلم، عالم الكون والفساد، أين مصادرك الطيبة، ومواردك اللذيذة؟ حللتِ بين السِّباع الضَّارية، والأفاعي المهلكة، لا تشاهدين إلا غافلاً، ولا تُعاشرين إلا جاهلاً، وذكر كلاماً طويلاً.

وبلغ الإسكندر، ففهم أنه أشار إلى نقل النفوس من العالم العلوي إلى العالم السفلي، فاستدعاه، فرآه حسن الصورة، مشرق اللون، فقال: ما معنى غرز الإبر في السَّمْن؟ فقال: فهمتُ من إرسال القدح أنك تقول: قد امتلأ قلبي بالحكمة كما مُلئ هذا القَدَحُ، فليس فيه مُستزاد، فأخبرتك أن حكمتي تزيد على حكمتك، وتدخل فيها دخول الإبر في السَّمن.

قال: فلم عملت الإبر مرآةً؟ قال: لأني علمتُ أن قلبك قد قسا من سَفْك الدماء، وسياسة العالم، فأريتُك أفعالَك فيها. قال: فما الكرةُ؟ قال: الدنيا. قال: فما بالُ المشربة؟ قال: هي حبُّ الدنيا، تُشربُ ولا تُشْبعُ. قال: فلم طَفَت؟ قال: فلم يَطفو الأجل؟ قال: فما بالُ التراب؟ قال: فهمتُ أنك تقول: ما بقي غير النزول فيه، ومفارقة النفس الناطقة هذا الجسد، وذكر كلاماً طويلاً.

فأعجب به الإسكندر، ودفع له أموالاً جليلة فلم يقبلها، وقال: لو أردت المال ما آثرتُ عليه العلم، ولست أُدخِل على علمي ما يُنافيه، وليس بعاقلٍ من خدم غير ذاته، واستعمل ما لا يصلح نفسه، والذي يصلحها صِقالُها بالحكمة، ورَدْعُها عن تناول

اللذات، فإنها صَدؤها، ومن عدم النظر في العالم العُلوي عدم القُربة من بارئه. فقال له الإسكندر: لله دَرُّك. ولأحسننَّ إلى صاحبك لأجلك، ثم صرفه مكرماً.

ذكر واقعة أخرى

لما توغَّل الإسكندرُ [في] بلاد الصين، بينا هو في بعض الليالي جالساً نصف الليل إذ دخل الحاجب، فقال: رسولُ ملك الصين على الباب. فأَذِن له، فدخل فجلس، فقال له: قُل. فقال: الأمر الذي جئتُ فيه لا يحتمل الزِّحام، فأَخْلِني. ففتَّشوه، فلم يجدوا معه حديداً، فأُخلي المجلس وبقي هو وإياه، فقال له: قل، فقال: أنا ملكُ الصين. قال: وما الذي آمنك مني؟ قال: ليس بيني وبينك عداوةٌ، ولا مطالبةٌ بذَحْلٍ، وبلغني أنك رجل عاقل حكيم، ولو قتلتني لم تظفر بطائل، فإنهم يُقيمون غيري، وتُنسب إلى الغدر، فأخبرني ما الذي تريدُ مني؟ فقال: ارتفاع مُلكِك ثلاث سنين آجلاً، ونصف ارتفاعها في كل سنةٍ عاجلاً[1]. فقال: لقد أجحَفْت. فما زال ينقصه حتى اقتصر على سدس المغل، ثم قام مسرعاً فخرج، وبات الإسكندر يفكر فيه.

فلما طلع الصباح، وإذا بملك الصين قد خرج في جيشٍ طبَّق الأرض، وعليه تاجه، وبين يديه الأمم، فركب الإسكندر واستعدَّ للقتال، ثم ناداه: يا ملك الصين أغدراً؟ فانفرد عن أصحابه، وقال: لا، ولكني أردتُ أن أعرِّفَك أنني لم أطعك عن ضعف وقلة، وما غاب عنك من جنودي أعظم، ولكن رأيت العالم الكبير مقبلاً عليك، ممكنك ممن هو أقوى منك وأكثر عدداً، ومَن حارب العالم الكبير غُلِب.

ثم ترجَّل وقبّل الأرض بين يدي الإسكندر، فنزل الإسكندرُ من فرسه، وأجلسه معه على سريره، وقال: ليس مثلُك مَن يُؤخَذ منه خراجٌ، وقد أعفيتُك، فما أحقَّك بالإنصاف والفضل، ولم تر عيني مثلَك. فقال الملكُ: أما إذا فعلت هذا، فلا بُدَّ من مجازاتك. ثم انصرف وبعث إلى الإسكندر بأضعاف ما كان قرّره عليه، وبعث إليه الإسكندر بمثل ذلك.

---

(١) في تجارب الأمم ١/ ٤٠، والمنتظم ١/ ٤٢٦: ارتفاع مملكتك لثلاث سنين عاجلاً ونصف ارتفاع مملكتك لكل سنة.

وحكي عنه أنه رأى رجلاً وكان يُسمَّى الإسكندر، وكان كثير الهزيمة، فقال له: إمّا أن تغير اسمَك، وإما أن تغيّر فعلَك.

ذكر وفاته وسِنِّه

مَلَك وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وتوفي وهو ابن إحدى وثلاثين سنة[١]، فكان مُلكُه عشر سنين، وقيل: ثلاثَ عشرةَ سنةً، وقيل: أربع عشرة سنةً أو ستَّ عشرة سنة، بمقدار مُلك دارا بن دارا الذي قتله الإسكندر، وكان قتلُه لدارا في السنة الثالثة من ملكه. وتُوفِّي بشَهْرَزُور، وقيل: بنَصِيبينَ، وقيل: ببابل، والأول أصحُّ.

وقال هارون بن المأمون: دخل الظلمات مما يلي القطب الشمالي، فسار فيها ثمانية عشرَ يوماً، ثم رجع إلى العراق، فاحتُضر، فأوصى أن يُحمل إلى أمه في تابوتٍ من ذهب، فطُلي بالأطلية المُمْسِكَة لذاته وأجزائه، وكانت أمه بالإسكندرية، وكتب إليها أيضاً كتاباً يعزيها بنفسه، فتلقته في نساء المملكة باكيةً حزينةً تقول: إن فقدتُ من ولدي أمره فما فقد قلبي ذكره.

وقيل: إنه أوصى إلى أرسطاطاليس: أنه إذا مات يُجعل في تابوت من ذهب، ويتكلَّم الحكماء عليه، كما فُعل بذي القرنين.

فتولاه أرسطاطاليس بنفسه، وجمع الحكماء وقال: ليتكلم كلُّ واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزِّياً، وللعامة واعظاً. فقاموا وأحدقوا بالتابوت، فقال الأول: أصبح مستأسرُ الأسرى أسيراً[٢].

وقال الثاني: ما أزهد الناس في هذا الجسد، وأرغبهم في هذا التابوت.

وقال الثالث: من العجب أن القوي قد غُلب، والضعفاءَ لاهون.

وقال الرابع: أيها الساعي الحريصُ، جمعتَ ما خذلك عند الاحتياج إليه، فعاد مغناه لغيرك، ووبالُه عليك.

---

(١) في تاريخ الطبري ١/ ٥٧٨، ومروج الذهب ٢/ ٢٥٧، والتنبيه والإشراف ص١١٤، والمنتظم ١/ ٤٢٨ أن عمره حين توفي كان ستاً وثلاثين سنة.

(٢) في مروج الذهب ٢/ ٢٥٢: أصبح آسر الأسرى أسيراً.

وقال الخامس: رب حريصٍ على سكوتك [إذ لا تسكت]، وهو اليوم حريصٌ على كلامك [إذ لا تتكلم].

وقال السادس: يا عظيم الشأن، اضمحلَّ سلطانُك كما اضمحل ظلُّ السحاب، وعَفَت آثارُك كما عفت آثار السَّراب[١].

وقال السابع: يا مَن ضاقت عليه الأرضُ، ليت شعري كيف حالُك فيما احتوى عليك منها.

وقال الثامن: هذا الذي كانت الآذانُ تنصت لكلامه، قد سكت فلْيتكلَّم الآن كلُّ ساكتٍ.

وقال التاسع: سيلحق بك مَن سرَّه موتُك، كما لحِقْتَ بمن سرَّك موتُه.

وقال العاشر: كنتَ تأمرنا بالحركة، فما بالك ساكناً.

ولما مات الإسكندر عرضوا على ولده إسكندروس المُلك فامتنع، واختار النُّسُك والتعبُّد، فملَّكت اليونان عليها بطليموس.

فصل في ذكر أرسطاطاليس

اعلم أن أرسطاطاليس حكيمُ اليونان، ورئيسهم المطلق، وصاحب المنطِق، وكان يُؤدِّب الإسكندر في صغره، وكان الإسكندر يُعظِّمُه ويكاتبه ويشاوره، فكان بمنزلة الوزير عنده.

وقيل للإسكندر: إنك تُعظِّم مؤدِّبَك أكثرَ من تعظيم والدك؟ فقال: لأن أبي كان سبباً لحياتي الفانية، ومؤدبي سبباً لحياتي الباقية. وقال مرة أخرى: أبي كان سبباً في رِقِّي، ومؤدبي سبباً في نُطقي[٢].

وجلس يوماً كاملاً لم يسأَلْه أحد حاجةً، فقال لجلسائه: ما أعد هذا اليومَ من عمري. قيل: ولم؟ قال: لأن الملك لا يَلتذُّ إلا بالجود على السائل وإغاثة الملهوف،

(١) في مروج الذهب ٢/ ٢٥٤ وما بين معكوفين منه: وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الذباب.
(٢) الملل والنحل ٢/ ١٣٧.